لغة الشعر ومقومات الشعرية عند القاضي الجرجاني
من خلال كتابه 'الوساطة بين المتنبي وخصومه

أ. شهيرة برباري
جامعة محمد خيضر- بسكرة

ملخص:

إن الاهتمام باللغة الإبداعية أمر قديم في النقد الأدبي العربي، بسبب حرص النقاد على معرفة دقائق اللغة التي تمثل الوعاء الحامل للتراث الشعري والنثري، ومن ثم كان الاهتمام بالجانب اللغوي في النصوص الشعرية، ولا سيما عند النقاد التطبيقيين؛ لمعرفة وتحديد خصائص الشعر البلاغية والفنية والفكرية، وسنحاول- في هذه الدراسة- الوقوف عند سمات التعامل النقدي لدى "القاضي الجرجاني" مع لغة الشعر في وساطته بين المتنبي وخصومه.

Résumé :

En effet l'excellent intérêt pour la language creative est ancient dans le domaine critique littéraire en raison de la conformité des critiques sur la connaissance des petitesses de la langue qui représente le support du patrimoine poétique et prosique, et alors de l'intérêt linguistique pour le côté dans les textes était velu, en particulier chez les critiques, Pour savoir et précise les spécifications de la poésie rhétorique, artistique et rationnel, et l'essai - dans cette étude - l'arrêt au près des caractères de la transaction critique 'd'El-Kadhi Eljerjani' avec la langue de la poésie dans l'intercession entre 'El-Moutanabi' et ses déductions .

تقديم:

إن قراءة المعايير التي احتكم إليها النقد الأدبي في تلقيه للشعر العربي تكشف عن مقومات الشعرية العربية كما عرضها النقاد الأوائل، وهي التي تشكل المرجعية الثقافية والنقدية التي أسست لقول الشعر فيما بعد، وعلى ضوئها أقام "القاضي الجرجاني" فكره النقدي المبني على مبادئ المفاضلة؛ التي رأى فيها أصلا لا يمكن الخروج عنه، ولكنه قام بتطويعه حسب ما اقتضاه تطور العصر الذي اكتسب الشعر خلاله ملامح جديدة عند الشعراء المحدثين، نقلها "القاضي الجرجاني" إلى مجال النقد التطبيقي باعتماد الوساطة شكلا لهذه الممارسة[1].

ويبدو أنه في اعتماده على أبواب عمود الشعر في المفاضلة بين الشعراء، إنما كان يرمي إلى إثبات تلك الأبواب في شعر "المتنبي"، تمهيدا لإبقاء هذا الشاعر في دائرة تقليد الشعر العربي، يحكم له أو عليه من خلال توافر صفات الجودة أو الرداءة في شعره، التي تأصلت النظرة إليها في صفحة الذائقة العربية، وفي مخزونها الشعري وحدود طاقات لغتها[2]؛ هذه اللغة التي شكل الاعتناء بها ضرورة أدى الوعي بأهميتها إلى عدها عاملا حاسما في ضبط المعايير البنائية والفنية للقصيدة العربية خلال عرضها على مقاييس الجودة والحسن، وعلى ضوء ذلك كانت مناقشة "القاضي الجرجاني" فكرا وممارسة.

وقبل ذلك، لابد لنا أن نحيط علما بمفهومه للشعر وعناصر الإبداع فيه؛ كقاعدة فكرية ومرجعية نقدية تؤطر الخطاب النقدي لدى "القاضي الجرجاني" حول لغة الشعر ومقومات الشعرية، التي ترتبط بهذه القاعدة وتلك المرجعية ارتباطا تأسيسيا.

1- **مفهوم الشعر عند "القاضي الجرجاني" :**

قضية تحديد مفهوم للشعر؛ من القضايا الجوهرية التي شكلت جزءا ومحورا مهما من الدراسة لدى "القاضي الجرجاني" في كتابه (الوساطة)، بل على أساسه أقيمت هذه الوساطة؛ فقد عالجها واهتم بها كغيره من نقاد هذا العصر الذي تطورت فيه الآفاق النقدية حول الشعر وتشعبت وترسخت أسسها، وبرز نقادها الذين تركوا بصمات جليلة لا يمكن لناقد متمرس أو أديب مبتدئ أن يغفل تلك الأسس والقواعد، يظهر ذلك – عند "القاضي الجرجاني"- من خلال نصوص كثيرة وبارزة في الكتاب سنحاول استكشاف مفهوم الشعر عنده بالوقوف عند بعض هذه النصوص والمقولات النقدية بالتحليل والمناقشة .

وأبرز نص يصادفنا على أنه تعريف صريح للشعر، قوله: « إن الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولد»[3].

يقدم لنا "القاضي الجرجاني" في قوله هذا رؤية شاملة ثم جزئية لمفهوم وطبيعة الشعر، فهو يحدثنا عن فهمه للشعر بعامة قبل أن يتناوله بالدراسة المفصلة ؛ ورؤيته الواسعة مبنية على نظرته للشعر لا من حيث ماهيته، ولكن من حيث سماته وخصائصه[4]؛ فهو ينظر إلى الشعر على أنه ظاهرة متكاملة ثم يبين الأسس القائمة عليها، فالشعر علم يبحث فيه عن عناصر الإبداع وإنشاء الظاهرة الإبداعية في كلام العرب ،كما أن دراسة الشعر عنده مبنية على أساس علمي؛ فهي قائمة على الاطلاع على دراسات و رؤى سابقيه من النقاد - التي حددت الشعر بإطار (الوزن، القافية، القول الموزون، الصناعة...) -، ثم إضافة ما أسعفه عليه فهمه، وهو بهذا يسعى إلى التقعيد لنظرية الشعر أو علم الشعر؛ هذا المفهوم (العلم) الذي أصبح في القرن

الرابع الهجري قرين حصول صورة الشيء في العقل، ومرتبطا بإدراك الشيء على ما هو به، يعني - على مستوى نقد الشعر – تحديد الخصائص النوعية للفن الشعري، وتحديد العناصر العقلية التي تجعلنا قادرين على تمثل الشيء، وبالتالي الحكم عليه ما دام الحكم على الشيء فرعا من تصوره، وبمثل هذا الفهم يمكن أن يكون "علم الشعر" فرعا مستقلا من فروع المعرفة، له مكانته داخل تصنيف العلوم وإحصائها.[5]

هذا الإدراك بالنسبة لتحديد مفهوم الشعر ينبني ويهتم بتحديد أدوات الشعر ،وكيفية صناعته، ويناقش مبدأ العلية في حسن الشعر، ويتوقف عند مبدأ الغاية وما يقترن به من تحديد أهمية الشعر وأثره في النفوس[6]، من هذا الباب حاول "القاضي الجرجاني" أن يحدد الشعر حدا شموليا متكاملا هو العلم، ثم يتدرج في بيان خصوصية هذا العلم؛ والتي تتلخص في جملة المقومات أو الأركان التي يقوم عليها هذا العلم؛ في محاولة لبيان العناصر التي تساعد على خلق و إنتاج نص شعري على درجة عالية من الجمالية والإبداع، وقد حصرها "القاضي الجرجاني" في أربعة عناصر: الطبع، الرواية، الذكاء، والدربة؛ وهي عناصر الإجادة في الشعر، ومقومات تفرد المبدع، وسيأتي تفصيلها فيما يأتي :

2- عناصر الإبداع (الأصول الأدبية):

من خلال القول السابق؛ الذي يحدد فيه " القاضي الجرجاني" مفهومه للشعر، يتضح أن رؤاه النقدية، ورصده ومناقشته لآراء الخصوم حول شعر المتنبي – في الوساطة-هي ألصق بالنص وقضاياه؛ إذ طرح بعض المقومات التي تشكل عبقرية المبدع، والعوامل المؤثرة فيها، وذلك عندما حدد مقومات أو أركان الشعر كعلم من علوم العرب و هي: الطبع، والرواية، والذكاء، والدربة[7].

وسنحاول الوقوف عند هذه المقومات كل على حدة في محاولة لرصد وكشف مصادر وآليات الإبداع الشعري أو بواعث وعناصر الشاعرية لديه، وذلك من خلال مناقشة ما ورد من نصوص تخص هذه العناصر.

أ-الطبع: قضية من قضايا المصطلح، التي تشكلت أصولها الأولى بما اكتسبته – في المسار النقدي- من تفرد دلالة، وتميز مصطلح.

فقد شكل مصطلح (الطبع) حقيقة عرفية و نقدية، في المرجعية النقدية التراثية ،التي تشكل فيها وعلى ضوئها، وكان مصطلح (الطبع) بمدلولاته المتعددة والمتشابكة مكونا رئيسا لإبداع الكتابة الشعرية بأشكالها وتنوعاتها، وجاءت هذه التسمية في تذوق الشعر ومناقشة مشكلاته الجمالية والبلاغية والدلالية، وارتبط المصطلح بشفاهية الشعر وكتابيته، إذ إن كل قضاياه ارتبطت بمصطلح الطبع وما تبعه وتشظى عنه، لهذا كان الطبع هو الأصل الذي لا غنى عنه في تأليف الشعر، إنه لا نهائي قوامه الحركة المطلقة، وهو العلامة التي تعرف بها الأشياء وتحدد، والحالة الأولى لتثبيت الأحاسيس الفطرية الأولية، خاصة إذا

غاب فيه الجهد والوعي والاختيار[8]، والطبع في أبسط صوره ما حمل في طيات المعاجم على أنه: « الطبع والطبيعة، الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان، وطبعه الله على الأمر يطبعه طبعا: فطره، وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها وأنشأهم عليها، وهي خلائقهم، يطبعهم طبعا، خلقهم»[9]، والطبع ابتداء صنعة الشيء؛ إذن الطبع في المفهوم المعجمي هو البداية وهو الأصل.

ويتحول مفهوم الطبع مع " القاضي الجرجاني" في وساطته ليلتصق ويرتبط بمفهوم الطبائع، حيث يكون المنطلق عنده متصلا بالجانب الشخصي، أي يتحول مصطلح الطبع والمطبوع لمنحى آخر يبتعد عن مقابلته بالتكلف والصنعة؛ فالطبع عنده مرادف لما يسمى الموهبة الشعرية؛ يظهر ذلك في قوله : « وقد كان القوم يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره؛ وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق»[10]؛ فالطبع بمعنى الموهبة هو الذي يجعل هذا شاعرا وأخاه لا صلة له بالشعر، فهي أصل وشيء فطري لا مكتسب[11]، بذلك عدها أكبر مقوم للشاعرية أو تفرد المبدع؛ فالطبع عنده يمثل أصل الإبداع الشعري وهو الذي يحفظ الشعر ويخلده، وبالتالي عامل مساعد على نقاوة الشعر و أصالته مع مرور الزمن، إنها الملكة الشعرية وعلى أساسها يكون التفاوت بين شاعر وآخر في القبيلة الواحدة، وعلى قدر الاختلاف في الطبع تفضل القبيلة أختها.[12]

يؤدي بنا هذا الطرح إلى مفهوم جديد لمصطلح الطبع عند "القاضي الجرجاني"، وقد يعد تطويرا له وهو: (المزاج)؛ والذي عبر عنه بقوله: « فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب؛ حتى إنك وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته»[13]؛ فالطبع – بهذا المعنى– هو الذي يتحدد به أسلوب الشاعر ويتكيف، وتصدر عنه تجربته وبذلك يعد المقياس الأول في الربط بين الشاعر ولغته، فهو سر التفاوت في الأسلوب والأداء؛ لأن الشعر صورة لطبع الشاعر ومرآة لنفسه وتصوير لمزاجه وما جبل عليه، وهنا يكمن سر التفاوت بين الشعراء، صياغة ومنحى وينابيع شعر.[14]

هذه القوة الخفية شكلت أساسا للتجربة الشعرية السوية، وقانونا إبداعيا مرتبطا بسمة الشاعرية، لذا عدها "القاضي الجرجاني" أول العلم، وروح القول الشعري، وقاعدة مصادره وآليات كتابته؛ هذه الآليات والمصادر التي لا يمكن بأي حال فصلها عن الطبع – المصدر الأول -، كما أن "القاضي الجرجاني" يستند إلى مزاج الشاعر وحالته النفسية، ونوعية طبعه للاحتجاج بأن الطبع ليس واحدا[15]، وأنه يخضع للتطور وفق عدة عوامل كان أولها مزاج الشاعر الذي حدد علاقته بلغته وأسلوبه، فكان مقياسا للتفاضل والتفاوت.

ويبقى الطبع – بهذا المفهوم أو ذاك – كأساس أول للعملية الإبداعية ، غير كاف ليكون وحده قاعدة هذه العملية، لذا يرى "القاضي الجرجاني" أنه لا بد من صقل وتثقيف هذا الأساس حتى يؤتي ثماره؛ فالطبع وحده لا يجدي إلا إذا انضافت إليه الرواية.

ب– الرواية: لقد أجمع النقاد السابقون على عد الرواية شرطا من شروط الفحولة في قول الشعر، وقد أورد "ابن رشيق " ما يدل على إلزامية الرواية على المطبوع وأنّ إطلاق صفة (الفحل)، لا تكون إلا على الشاعر الراوية، يقول: « وقد سئل "رؤبة بن العجاج" عن الفحل من الشعراء، فقال: «هو الراوية»، يريد إذا روى استفحل، قال "يونس بن حبيب": « وإنّما ذلك لأنّه يجمع إلى جيّد شعره معرفة جيّد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة»، وقال "الأصمعي": «لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ»[16]؛ فالرواية سنة طبيعية عند العرب، لأن نتائجها هي التعهد وترويض الألسنة والأفهام على الكلام البليغ والأساليب الراقية.[17]

و"القاضي الجرجاني" يجعل (الرواية) معيارا من معايير الشاعرية، يقول: « فإذا استكشفت عن هذه الحالة، وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية، ولا طريق للرواية إلا السمع؛ وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض »[18]؛ فالرواية عنده تعني التلمذة بدليل أنه مثل لذلك بالشعراء ورواتهم ، (فزهير كان راوية أوس، والحطيئة راوية زهير...)[19]؛ وهكذا كانت سنة العرب، ورواية الشعر وحفظه وترسم خطاه من أهم العوامل التي تساعد على صقل الموهبة الفطرية (الطبع)؛ إذ إنها تعلم الشاعر بطريقة عملية تطبيقية كيفية صياغة الشعر وبلورة معانيه ودقائق أموره، كما أنها تلعب دورا هاما في بناء شخصية الشاعر وتهذيب ذوقه، وتقوية ذاكرته وتجويد قريحته، كما تعينه على الإفادة من أشعار غيره لإيجاد وتوليد معان لم يسبق إليها؛ وملاك ذلك الحفظ لأن الشاعر المطبوع لا يمكنه أن يحيط بألفاظ العرب، ويستشف معانيها إلا بالحفظ؛ الذي يعتمد أساسا على السمع، بذلك تصبح الرواية صنعة للطبع فهي مرتبطة به، تثريه وتوسع مجالاته، وهذا يعني أن وظيفة الرواية ذات قيمة أساسية لأثرها في ترسيخ المنوال وإثراء ثقافة الشاعر، والمحدث المطبوع لا يملك هذه الفضيلة إلا إذا حفظ كلام العرب ورددده واستوعبه، لذلك رأى "القاضي الجرجاني" بل دعا إلى وصل وربط المحدث من الشعر برواية المتقدم منه، على نحو ما يتضمنه قوله: « أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر»[20]، والذي وصفه بالمطبوع الذكي.

تستوقفنا معالجة "القاضي الجرجاني" لهذه الفكرة، لننظر إلى القضية من زاوية أكثر عمقا وفق محورين: (القديم/المحدث) و(الطبع/الصنعة)؛ فالربط بين الطبع والرواية هو ربط بين الرواية والشاعر الفحل، وهو شاعر الطبع؛ لأن عطاءه خالد، وهذا لا ينفي حاجة شاعر الصنعة إلى الرواية، ولكن رواية المطبوع هي صنعة الطبع، وليست أمرا سلبيا يشوه الطبع ويغير موقعه

إلى حد المطابقة مع التكلف، فتكون بذلك أساسا ينطلق منه الشاعر ليصل إلى مرتبة الصنعة؛ فالرواية بالنسبة للمطبوع مقوم يثري الطبع مع المحافظة على تشكله الأول كإحساس قوي وطاقة طبيعية[21].

وتبعا لذلك نجد "القاضي الجرجاني" يرى حاجة المحدث للرواية – بهذا المفهوم– أمس، يقول مضيفا: «ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذّب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبح »[22]؛ إذ لا بد للطبع من التهذيب بالممارسة والصقل والحفظ والرواية، وهي صفات تتحقق بها التجربة الشعرية [23]، عند المتقدم والمتأخر على السواء، ولكن تبقى حاجة المحدث له أكثر ذلك لأنه يسمح بالتمييز بين القول الحسن والآخر الرديء فيما يسمع ويروي ويحفظ، والتهذيب – في رأيه - هو الفيصل الأساس بين المطبوع والمصنوع، كما يفهم من مضمون نصه أن الطبع مصطلح مرن يخضع للتطور الدلالي وفق ما تقتضيه الممارسة والحفظ، وتبعا للخصوصية الفردية والتطور التاريخي، فهو لا يخص عصرا دون عصر آخر.

إن هذه النظرة النقدية "للقاضي الجرجاني" في هذه القضية المعقدة، توحي بطبع وتفرد نقدي مبني على عمق الرؤية والدقة في بيان دلالة المصطلح 'الطبع/الرواية'، حسب ما يرتبط به من عنصري العملية الإبداعية 'الشاعر/النص'، وما يؤطره من مؤثرات 'ذاتية/زمنية'، وما يتداخل معه من سياقات تنتجها رؤى نقدية خاضعة لثنائية 'القدم/الحدوث'، و'الطبع/الصنعة'، لكن هل يمكن للرواية وحدها أن تضطلع بمهمة تثقيف الطبع ؟ أو هل يكفي الطبع والرواية لتكوين مبدع متميز ؟

جـ– الذكاء: الذكاء مبدأ نفسي، تنبه "القاضي الجرجاني" إلى أهميته و أثره في الشاعر وشعره، ولكنه لم يقدم تحديدا دقيقا لمفهومه في الوساطة، إلا ما يلمس منه في قوله: حسن التصرف على غير مثال سبق لا سيما في اختيار ما يناسب الذوق، وهذا إلى جانب الرواية (الثقافة) يقي الشاعر من التقليد وهي التي تذكي الطاقة الخلاقة في نفس المبدع، والذكاء مقترن بالطبع عند "القاضي الجرجاني "، لكونهما منحة فطرية، قابلة للتطور والنمو، بفضل الدربة والمراس، كما أن الذكاء هبة فطرية وملكة يستعان بها على الإجادة في الشعر، فضلا عن كونها صقلا وإضافة إلى جودة الشعر.

فالعملية الإبداعية تظل قرينة خصوصية وتفرد مردهما إلى شخصية المبدع ذاته، وما تتمتع به من صفات ومواهب، ومكونات إطاره الفكرية والفنية، وكيفية تحقق هذه الأسس والمقومات التي أشار إليها[24]، فذلك مرتبط بهذا المبدأ النفسي الذي يحتاج بدوره إلى الدربة والمران.

د-الدربة: بالإضافة إلى الذكاء لابد للإبداع من رافد مهم جدا يحلق بصاحبه إلى آفاق التميز، وهو الدربة والمران؛ فالشاعر الحق لا يكتفي بعامل الموهبة والذكاء فقط، بل لابد أن

تصقل بالدربة، لذا عليه دراسة الآثار الشعرية الرفيعة والتدرب على العمل الفني[25]؛ فإذا كان الطبع والرواية والذكاء عناصر تشكل مقومات بل أركان الشعر، فإن الدربة هي مادته، وهي القوة التي تكشف عن أصالة الطبع أو الملكة، ومبلغ تمكن الشاعر من رواية شعر غيره[26]، وتقوية وتأصيل الحاسة الفنية لديه؛ حتى يصل إلى التبريز والسبق ودرجة الذكاء الذي يتميز به المبدع.

والدربة تمثل تمهيدا النضج الشاعر، وتفتقا للتجربة الشاعرية، إنها الآلية التي توقظ الطبع وتظهره وتجعله طبعا منقادا، لذا عدت معيارا هاما يسمح للنص الشعري بالارتقاء والانتشار، فهي أساس لصقل النص وتثقيفه[27]، ولطالما عدت الدربة أساسا ومعيارا نقديا لحصول عملية الإبداع عند النقاد القدامى، بل عدت شرطا وجزءا مكملا لكل عامل وسبب ومقوم من مقومات العملية الإبداعية، على حد قول "القاضي الجرجاني": «ثم تكون الدربة مادة له (...) ولكل واحد من أسبابه»[28]؛ هذه الخصال مجتمعة هي التي تضمن لمن يحوزها السبق والإحسان، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته الشعرية في الجودة، ومنزلته من التفوق .

إذن: الطبع والرواية والذكاء والدربة صفات تنبثق منها قوة الشعر، وقوة الشاعر، وهي صفات لا تقف بالشعر والشاعر عند زمن معين؛ فليس في هذه القضية قديم ومحدث، وجاهلي ومخضرم، وأعرابي ومولد[29]

و"القاضي الجرجاني" ينظر إلى الوجوه الأربعة على أنها عمل متماسك وضروري في بناء الشعر، وهو ليس كالدائرة المغلقة لا يدري أين طرفاها، وإنما يجيء العمل الفني - وفقها - مرنا يقبل الإضافة والتجديد والابتكار، ويكون عرضة للاختلاف وتعدد المنازع الشعرية، إذ الشعر فن والفن لا يكون على قالب واحد، ولا يلتزم في التعبير طريقة واحدة[30]، وهذه العناصر هي أدوات ومقومات الشعر والشاعر في كل عصر وفي كل لسان مهما اختلف الزمان والمكان، يقول "القاضي الجرجاني": « فهذه أمور عامة في جنس البشر، لا تخصيص لها بالأعصار ولا يتصف بها دهر دون دهر»[31]؛ وعلى هذا فقد كان الشعر عند "القاضي الجرجاني" علما من علوم العرب تسهم في تكوينه وتثبيته ونشره مهيئات محورية هي: الملكة الفطرية؛ التي يشكلها كل من الطبع والذكاء، والملكة الاكتسابية؛ المركبة من الرواية والثقافة، فالشعر تفاعل الطبع والصنعة، إذ إن مقومات قطبية كالرواية والذكاء والدربة عمليات عقلية لها بعدها في الإنسان[32]، من هنا يتحدد لنا وفق رؤية " القاضي الجرجاني" في تحديده لمفهوم ومقومات الشعر، إطار نقدي آخر ينظر إلى الشعر من خلاله، طرفاه: الطبع والصنعة، ويمكن التعبير عنها كالآتي :

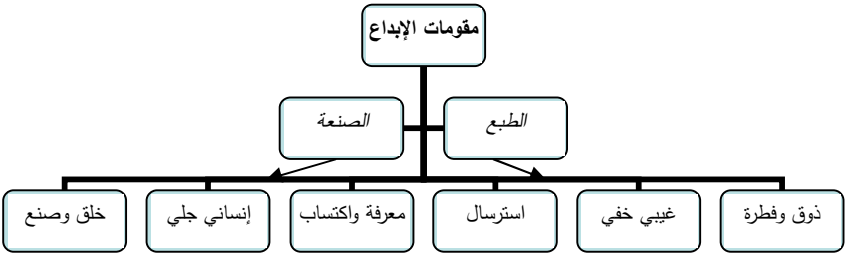

-'يمثل الطبع هوية الخطاب الشعري، وهو بداية للصنعة، التي تعد تهذيبا له أو عدولا عنه'-

تبعا لهذه الرؤية ينتقل الحديث عن عناصر الإبداع ومقومات تفرد الشاعر، إلى مقومي العملية الإبداعية (النص)، أو مقومي الأدبية وهما: الطبع والصنعة، يظهر ذلك فيما ورد من مداخلات "القاضي الجرجاني" حول هذا الموضوع، خلال حديثه عن الشعر المطبوع والمتكلف، في نصوص متناثرة في 'الوساطة'.

يقول في إحدى هذه المداخلات - ضمن حديثه عن الشعر-: « وكان الشعر أحد أقسام منطقها، ومن حقه أن يختص بفضل تهذيب، ويفرد بزيادة عناية، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف إليها التعمل والصنعة، خرج كما تراه فخما جزلا قويا متينا»[33]؛ فالطبع والصنعة قيمتان تتصلان بالنص الشعري عنده، ويوحيان لديه بالتكامل لا التضاد[34]؛ فالعلاقة بينهما علاقة الأصل بالفرع، فالطبع دائما أصل الكلام والتأليف والإبداع، وقابليته على التغيير والثراء والعمق موكلة إلى فاعلية الصنعة، وهذا التداخل بين المفهومين نشأة وتحصيلا يمكن أن نستشف معالمه من خلال ما طرحه "القاضي الجرجاني " في نصه السابق؛ فمن الشعراء من يملك طاقة ذاتية، عبر عنها بـ (الطبيعة والعادة) وهي سمة تفرد المبدع، هذه الطبيعة تخضع بدورها إلى التهذيب الذي يضفي عليها صبغة التغيير، الذي أطلق عليه مصطلح (الصنعة)؛ والتي تعني عنده الإضافة لأنها تمثل التأدية الجيدة و الصورة المتقنة لوظيفة الطبع، وبذلك لا يكون بينهما تناقض.[35]

وهذا الرأي يوحي بأن "القاضي الجرجاني" استطاع كشف مقومات الشعر التي تتعدى به حدود الموهبة الطبيعية، وترغب في تفعيل العلاقات المنظمة لحركتها وتطويرها، ولأنه لا يمكن أن ينحصر الإبداع مهما تكن نوعيته وجنسه في مجرد الاستعداد والقدرات الذاتية، بل كان حقه أن يحظى بالتهذيب، ولذلك فمن اجتماع الطبع بالعادة والصنعة فإن الكلام لا يكون إلا رصينا جزلا، وهذه المقومات التي لا تعترف بحدود الزمان والمكان تحدد للشعر طبيعة جمالية خاصة تظهر وتتحقق في معانيه ولغته، وتمنحها كيانا وخصائص فنية.

3- *لغة الشعر بين الشاعر والناقد:*

إن اللغة هي وسيلة الشاعر للتعبير والخلق، وهي موسيقاه، ألوانه، فكره، وهي المادة الخام التي سوّى منها كائنا ذا ملامح وسمات، كائنا ذا نبض وحركة وحياة؛[36] فهو يتطلع بقدر ما يؤتى من ملكة إلى الكشف عن كل الطاقات الكامنة في اللغة، ويعمل بكل ما يمتلك من مواهب وقدرات على تفجير هذه الطاقات، يبحث في الوعي واللاوعي عن كل ما يمكن أن يوجد بين أصوات هذه اللغة وكلماتها من علاقات باطنة أو نفسية أو روحية، يرتجل الألفاظ، ويبتكر الصياغات والرموز، ويولد العبارات أو يلبسها حللا جديدة متنوعة من خياله[37]، ليبرز تجربته في ثوب إبداعي.

وأهميتها تكمن في دورها في تجسيد الأفكار وصياغة المواقف، ورسم العواطف، والكشف عن عوالم الشاعر ورؤاه إزاء الموضوعات المختلفة؛ ومن ثم كانت دراسة اللغة الشعرية أول ما تنكب عليه المقاربات سواء في مفرداتها أو تراكيبها أو أساليبها، أو في مستوياتها المعجمية أو النحوية أو الصرفية أو البلاغية[38]، وعلى هذا الاعتبار شكلت قاعدة تأسيسية للدرس النظري حول القصيدة العربية في صبغتها القديمة، لأنها حملت أفكارها وصورها، وصاغت عناصرها الإبداعية، كما بلورت التجربة الشعرية للشاعر.

فكانت المادة التي تبلورت وفقها جملة المبادئ والأسس والمعايير، التي تقاس عليها شعرية القصيدة من عدمها، وكانت القصيدة الجاهلية النموذج الأول والمثال الأعلى لرصد هذه المبادئ والمعايير وتأسيس النظرات وتطبيقاتها وفقها، وذلك لما تملكه هذه اللغة من خصائص معجمية وصوتية ودلالية وجمالية، أمدتها بطاقات كبيرة جعلتها تثري اللغة العربية وآدابها[39]، ولهذه الاعتبارات كانت لغة الشعر محط اهتمام بالنسبة إلى الباحثين اللغويين والدارسين البلاغيين والنقاد، الذين انكبوا على دراستها من حيث الألفاظ والمعاني، والبنى التركيبية والصور والأساليب، محاولين كشف جوانبها وعلاقاتها بالشاعر والمتلقي.

فاللغة بكل ما تشتمل عليه من ألفاظ وصيغ وتراكيب ومعان ثابتة قائمة أو ممكنة محتملة أو غير محتملة، هي الأداة التي يبرز بها الشاعر كل ما يكتشفه ويستشعره ويتنبأ به، ولذلك هو دائم البحث عما يمكنه من جعل هذا العالم متسعا رحبا مستوعبا لعالمه الداخلي الخاص متوافقا معه، موازيا له في عمقه وامتداده، مجسدا لكل حقائقه، معبرا عنه بصدق وأمانة وحيوية وصفاء ووفاء[40]؛ هكذا كانت اللغة الإطار الأول والأخير الذي يتحرك ضمنه الشاعر، فقد اتخذها الغاية والوسيلة لبث أفكاره، وبالمقابل كانت البوابة الأولى التي يدخل منها القارئ والناقد إلى عوالم هذا الإطار الشعري، فكانت بالنسبة لهم -كذلك- وسيلة وغاية في دراسة جوانبها ألفاظا ومعان وعبارات، تركيبا وبناء وصياغة؛ محاولين من خلال ذلك البحث عن خصائصها ومميزاتها وسماتها الشكلية والجمالية والتأثيرية، وما تحويه من جوانب نفسية وانفعالية تخص الشاعر.

إلا أن النقاد العرب القدماء لم يتحدثوا عن لغة الشعر أو الشاعر في فصول مستقلة أو أجزاء مخصصة من كتبهم؛ ذلك أن نقدهم كان لا يزال جزئيا، ينظر في إطار البيت الواحد أو عدة أبيات، ومن جهة أخرى اتسم نقدهم بالرؤية الشاملة الموسوعية؛ حيث كانوا ينظرون إلى هذا البيت وهذه الأبيات من عدة جوانب، وهو أمر أبعدهم عن تلك النظرة الدقيقة والمرتبة ضمن فصول أو غيرها[41]، ولكنهم تطرقوا إلى الحديث عنها أو الإشارة إليها ضمن أطر لغوية وبلاغية ونقدية عديدة ومختلفة[42].

و"القاضي الجرجاني" من بين هؤلاء النقاد الذين تطرقوا إلى الحديث عن لغة الشعر أو أشاروا إلى بعض ملامحها، ضمن آرائه المتفرقة في الوساطة تنظيرا وإجراء، خاصة فيما حوته الأطر التي حددها لعمود الشعر وأسس المفاضلة بين الشعراء، آخذا في الحسبان خصوم "المتنبي" على اختلاف اتجاهاتهم (النحوية واللغوية والبلاغية والنقدية)، التي اتخذت هي الأخرى من اللغة المنبع الصافي لدراساتهم والمعين الذي غرفوا منه وسيلة لبث وتقنين آرائهم، وغاية للتأصيل والتنظير والتطبيق اللغوي والنحوي والبلاغي، فكانت الأرض الخصبة لذلك التنوع والاختلاف، وهذا التأصيل والتنظير والتطبيق ارتبط بالمادة اللغوية للشعر كأساس انطلقوا منه ليصلوا إليه مؤطرا بالقواعد والرؤى والنظرات.

و"القاضي الجرجاني" –بدوره- نهل من معين هؤلاء اللغويين والنحويين والبلاغيين والنقاد على تعدد رؤاهم وتباينها في النظر إلى لغة الشعر، التي اتخذ منها ميدانا لتطبيقاته النقدية التي خص بها شعر "المتنبي"، وتجدر الإشارة هنا إلى الأسس التي ارتكز عليها ورسم وفقها حدود هذه الممارسة، وهي –حسب قراءتنا-:

الأساس الأول: النموذج والمثال الذي وضعه كمقياس يقاس عليه، وهو ما وافق طريقة العرب في قول الشعر، التي حددها وفق جملة من المعايير بنى عليها خطابه التطبيقي فيما بعد، وهي تشكل الخلاصة النقدية التي سبقته بالتنظير والتطبيق.

الأساس الثاني: شعر "المتنبي" كمادة لهذه المقاربات؛ لأنه اتخذ من الخصائص الشعرية لنصوص "أبي الطيب" مرجعا لإثبات بعض المقولات النظرية، بمقايسة نصوصه بما سبقه وما عاصره على صعيد كشف الجماليات الشعرية، كما عد "المتنبي" بنصوصه، وسيطا بين ما قدم من معايير نموذجية لبنية الخطاب الشعري المقياس، وما عد خروجا عنه، بالاعتماد على النظر إلى حدود وخصائص اللغة الشعرية وما صاحبها من تغييرات في الشكل والمضمون والصياغة مع المحدثين، لأنه اتخذ من التوسط لشاعرية "أبي الطيب" وشعرية نصوصه، الهدف الذي نسج لأجله خطابه النقدي من خلال ما قدمه من نظرات وتطبيقات في الوساطة.

وفي الوقت نفسه محاولة "القاضي الجرجاني" من خلال خطابه؛ إثبات أن "المتنبي" قد أخذ بالنموذج، وما صاحبه من تطورات على اختلاف مستويات اللغة، لأنه طوع ما أدرجه من أسس

ومقومات في النموذج بحسب هذه التطورات والتغييرات، التي عدها من سبقه خروجا عن النموذج، وعدها هو توسعا ورحابة منحت ملمحا إيجابيا في استحداث جماليات القصيدة.

الأساس الثالث: توسيع مجال المقاربات والتطبيقات، بالاعتماد على منهج المقايسة الذي اعتمده أصلا تطبيقيا يساهم في إثبات الوساطة حيث تجاوز نصوص "المتنبي" إلى عديد النماذج القديمة والمحدثة، لرصد الشواهد وتوسيع النظر، حتى تكون الأحكام متسمة بالمنطقية أو الوسطية، ومن جهة أخرى الأخذ الملم بآراء الخصوم – على اختلاف توجهاتهم- والرد عليها بإجابات تكون مؤسسة، ومبنية على قواعد وآليات إجرائية، حتى تكون الحجة مقنعة.

كما اعتمد في هذا التوسيع على النظر بالوسطية للنص الشعري أيّا كان قائله وعصره ومذهبه - بمن فيهم "المتنبي"-لإرساء قواعد نظرية، منطلقا في ذلك من ممارسته التطبيقية، التي تؤسس بطريقة ما لجماليات النص الشعري، والكشف عن خصائص هذه الجماليات التي تميزه عن غيره من أنماط الكلام.

كما أن عمود الشعر –كما عرضه- يحوي عناصر الإبداع الشعري، إضافة إلى ما أسعفه عليه فكره النقدي وما استوعبته ممارسته، من استجلاء مقومات ومكونات ارتبطت بشكل أو بآخر بهذه العناصر وخصائصها الجمالية، أو عدت إضافة لها، ومن جهة أخرى فقد ناقش هذه العناصر وتفريعاتها المعيارية في خطابه التطبيقي، على اعتبار أنها تمثل النموذج الذي اعتمد في المفاضلة.

أما الإطار العام الذي تتبلور ضمنه لغة الشعر كمادة للممارسة النقدية، فهو اللفظ والمعنى كأساسين بنائيين لهذه اللغة.

4- لغة الشعر بين اللفظ والمعنى:

من أول الاعتبارات التي التفتت إليها حركة النقد العربي القديم، كانت قضية اللغة؛ فالشعر فعالية لغوية في المقام الأول، وتتحقق هذه الفعالية، في عنصرين من عناصر عمود الشعر هما: اللفظ والمعنى بوصفهما يشكلان المستوى التركيبي للغة.

وقد أخذ المستوى التركيبي بوصفه مقوماً لغوياً أهمية في التراث النقدي، لأنه جعل جل اهتمامه منصباً على الجانب اللغوي للنص الشعري، فاللغة هي الأساس الأول الذي بني عليه النقد العربي، وهي الهاجس الأول لدى المهتمين بحقلي: اللغة والأدب، والشعر كان يمثل –لدى النقاد– وعاء يحفظ اللغة من الفوضى والضياع؛ واللغة بهذا المعنى تكاد تؤلف جوهر الشعر، فلا عجب إن حظيت لدى القدماء بكل عناية واهتمام، حتى كأن النقد اللغوي هو عمود النقد العربي برمته وكأن إعجاب العرب بالشعر، إنما كان منصرفاً قبل كل شيء إلى إعجابهم بلغته .

ومن هنا نقرأ مكونات الشعر وصفاته وقد تركزت في لغته، التي نظر إليها النقاد من خلال مادتها: اللفظ والمعنى.[43]

واللفظ بنية صوتية ترتبط بفكرة محددة ارتباطا وضعيا، فهي تتكون من هذين الجانبين: الصوت والفكرة، وقد اهتم نقاد العرب القدماء باللفظ أيما اهتمام، ورأوه أحد عناصر العمل الأدبي، والكلام في مقابل المعنى[44]، ولذلك عد أساسا معياريا ومرجعا للحكم على النصوص الشعرية من خلاله، فكان على مستوياته الثلاثة (المعجمي، الصرفي، والنحوي) محط أنظار واهتمام الدارسين والنقاد العرب، فهو يمثل أساسا نقديا لقراءة النصوص والحكم عليها وفق حدود ومقاييس هذا الأساس النقدي؛ الذي يمثل أحد طرفي اللغة وحامل طرفها الثاني(المعنى)، ولطالما انكبت دراسة النقاد للغة الشعر والحكم عليها عامة بالانطلاق من دراسة اللفظ مفردا وتركيبا، والحكم عليه، و"القاضي الجرجاني" كغيره من النقاد، اعتمد اللفظ أيضا ركيزة ومعيارا نقديا في خطابه، كما يظهر من خلال ما قدمه من ملاحظات ودراسة للنصوص الشعرية المتناثرة في وساطته، وهذا الاعتماد مما ورثه عمن سبقه من النقاد والدارسين، حيث ذكره منسوبا إليهم كأساس في المفاضلة بين الشعراء، فيما عبر عنه بعمود الشعر.

فاللفظ أحد لبنات هذا العمود، وقد اشترط فيه الجزالة والاستقامة، يظهر ذلك في قوله: « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته»[45]؛ وقد سبق وأن عرضنا لهذا النص جملة، وسنقف عند جزئياته تفصيلا في محاولة الإحاطة بتقسيماته وعناصره، واستجلائها في الخطاب التطبيقي "للقاضي الجرجاني"، بدءا بعنصر اللفظ الذي اشترط فيه الجزالة والاستقامة كمبدأين أساسيين لا يقوم اللفظ إلا بهما.

والجزل: الحطب اليابس، وقيل الغليظ، وقيل ما عظم من الحطب ويبس ثم كثر استعماله حتى صار كل ما كثر جزلاً، واللفظ الجزل خلاف الركيك[46]، والملاحظ أن الجزالة تدل على القوة والمتانة، فهي تدل على الحطب اليابس الكثير والغليظ، وعلى ما عظم من الحطب ويبس، ثم تطورت الدلالة من خلال الاستعمال.[47]

وحدودها عند "القاضي الجرجاني": ألا يكون اللفظ غريبا وعرا، ولا سوقيا مبتذلا، وهي صفة لقوة الأسلوب؛ الذي يحدده بقوله: « النمط الأوسط، ما ارتفع عن الساقط السوقي، وانحط عن البدوي الوحشي»[48]؛ فمع متانة الأسلوب يجب أن تتوفر له ألفة مع السماع، فلا يكون غريبا عنها ولا بعيدا، مع مراعاة عدم تنافر الألفاظ لئلا تقع في المعاظلة، وعدم إساءة ترتيب الجمل لئلا يغيب المعنى.[49]

حيث يضع "القاضي الجرجاني" معيارا للجزالة: « بأن يكون بحيث تعرفه العامة إذا سمعته، ولكنها لا تستعمله في محاوراتها »[50]؛ وهذا ما عبر عنه بالنمط الأوسط، الذي لا يكتنفه التعقيد حتى يكون حوشيا غريبا، ولا سوقيا مبتذلا بسيطا تستهلكه العامة في محاوراتها اليومية، وهذا دليل على اهتمام "القاضي الجرجاني" باللفظ حيث أعطاه أهمية بالغة

وأدرك ما له من قيمة، بأن عده أساسا من أسس المفاضلة بين الشعراء، ووضع له معايير ومقاييس يجب ألا يحيد عنها حتى لا يعد مردودا وعيبا في الشعر.

وهذا الاهتمام نابع من كون اللفظ اللبنة الأساسية في بناء النص الشعري؛ حيث يراعى في ذلك المعنى الذي يحمله اللفظ، لذلك يربط "القاضي الجرجاني" بينهما ويجعل لكل لفظ معنى يناسبه، لأن الكلمة تستحسن في موضع، ولا يتم لها ذلك في موضع آخر، ويتطلبها مكان حتى لا تغني عنها سواها، بينما تكون نادرة نافرة إذا جاءت في غيره[51].

هي إذن رؤية شمولية تحدد للفظ قيمته داخل التركيب، وانتظامه ضمنه، تتحدد وفق ما أطلق عليه الجزالة وما فرضته من معايير؛ تخلق هذا التناسق وهذه القيمة، ويربط "القاضي الجرجاني" ذلك بالاختيار عند المحدثين؛ الذي اشترط فيه السماحة والسهولة لكن: « لا تظنن أني أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث، بل أريد النمط الأوسط »[52]؛ فقد ربط الاختيار بالسماحة والسهولة، واللطف والرشاقة، التي لا تعني الضعف والركاكة، كما توضح الترسيمة الآتية:

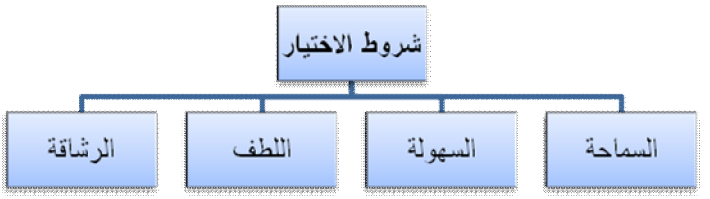

'وفي ذلك طلب للجزالة'

كما أن هذه الشروط مرتبطة بمعايير أخرى، تعد مقاييس للجزالة كسلامة الطبع:« فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة »[53]؛ فسلامة اللفظ التي تجعله يتصف بالسهولة والرشاقة واللطف، هي في حقيقتها ذلك التجلي للطبع السليم، الذي يعد هو الآخر تجليا لشخصية الشاعر في ارتباطه ببيئته وعصره، فكلما تجرد منها اتسم كلامه بالتعقيد والغرابة في ألفاظه، يبدو ذلك كالآتي:

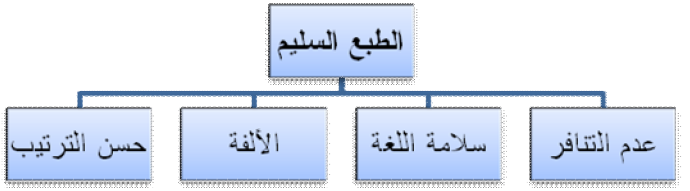

'وفي هذا تحقيق للنمط الأوسط في الأسلوب'

فقد ارتبطت الجزالة باللفظ داخل النسيج الشعري، فهي تخص الأسلوب الذي يروم التوسط في الاختيار بين اللفظ والمعنى للغة شعرية تجسد الطبع السليم في بنائها وتركيبها، وتسعى إلى تحقيق الشعرية والجمال في استقامة الألفاظ وسهولتها ورشاقة الأسلوب وسماحته.

وهذا يقود إلى الحديث عن المقياس الثاني، وهو البيئة والعصر، يقول: « وأنت تجد ذلك في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب(...) ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك(...) فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله »[54]؛ فقد فرض تطور العصر وتغير البيئة تغييرا في المعجم الشعري، وعلى هذا الأساس فقد تميز بعض الشعراء المحدثين في أشعارهم، بتوعر الألفاظ والتعقيد في الكلام؛ نجم عن تعلقهم ونسجهم على منوال القدماء في ألفاظهم وتراكيبهم، دون مراعاة ذوق العصر الذي أصبح - تبعا لما جد فيه- هذا الاستخدام لألفاظ قديمة تكلفا وطلبا للتعقيد والغرابة، وخروجا عن الطبع السليم، كما أن الحضارة من شأنها تهذيب النفوس والطبائع، لذلك تميز البدوي والجافي بالتعقيد في الكلام، وفرض التحضر اختيار ألين الكلام وأسهله.

ويضرب "القاضي الجرجاني" مثالا على ذلك في قوله: « وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل؛ فإنهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة؛ أكثرها بشع شنع؛ كالعشنّط والعنطنط والعشنّق، والجسرب والشوقب والسلهب والشوذب، والطاط والطّوط، والقاق والقوق، فنبذوا جميع ذلك وتركوه، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان، وقلة نبوّ السمع عنه»[55]؛ ففي هذا المثال التفصيلي يقدم لنا "القاضي الجرجاني" نموذجا عن أثر الحضارة الذوق العصري في اللغة، وما فرضه من حدود للاختيار على الشعراء المحدثين، فقد اختاروا مثلا لفظة (طويل) من بين ستين لفظا مرادفا لها، هذه الألفاظ التي أصبحت تتميز بالغرابة والوحشية والتعقيد، فاختاروا (الطويل) طلبا للسهولة والألفة، التي فرضتها سهولة الحضارة ولينها، ففيرت هذه الحدود ملامح المعجم الشعري المحدث إذا ما قورن بالقديم، لدرجة أنهم: « تجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمّحوا ببعض اللحن، حتى خالطتهم الركاكة والعجمة، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق، فانتقلت العادة، وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين، فيظن ضعفا، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا، وصار ما تخيلته ضعفا رشاقة ولطفا»[56]؛ يستوقفنا هذا النص بملاحظات أهمها:

-أن الذوق العصري والتحضر مقياس أساسي، ساهم في تغير المعجم الشعري، في ارتباطه بالبيئة (من البدو إلى الحضر)، والعصر(من القديم إلى الحديث)، فرسم الشعراء المحدثون – تبعا لما منحهم هذا المقياس من حرية- واختطوا لأنفسهم حدود معجم جديد تميزت ألفاظه بالسهولة والرقة واللين على خلاف ما تميزت به ألفاظ المعجم الشعري القديم.

-هذه السهولة والرقة عدّت ضعفا –عند بعض النقاد- ، إذا ما قورنت بألفاظ القدماء، إلا أنها عند

"القاضي الجرجاني" رشاقة ولطف ورونق، لأن المبادئ لم تتغير، ولكنها أصبحت خاضعة لطبع جديد فرضه الذوق الجديد، وتتلخص هذه المبادئ في: « متانة الكلام وجزالة المنطق، وفخامة الشعر»[57]؛ لأنها ترتبط بمرجعية واحدة هي الطبع الذي تهذب وسهل مع تطور العصر وأثر الحضارة، وتبعا لذلك يرق الشعر ويصلب، ويسهل اللفظ ويتوعر المنطق، بحسب اختلاف الطبائع[58]؛ لتصبح هذه المبادئ عند المحدثين متعلقة بسهولة الألفاظ والليونة في الكلام، والصفاء والرونق والرشاقة واللطف في المنطق، مطلبا لتحقيقها: « فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف، وأتم تصنع، ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة»[59]؛ فقد يعد الاقتداء بالنموذج القديم ومراعاة السير على منواله في الألفاظ وصياغة التراكيب نوعا من التكلف، لأنه خروج عن الطبع الذي هذبه الذوق الجديد وصقله تطور العصر.

إن "القاضي الجرجاني" يدافع عن المعجم الشعري للمحدثين، وينافح عن ألفاظهم؛ فقد عدّ تلك السهولة والليونة في شعرهم صفاء ورونقا، وهو في ذلك يقف موقفا وسطيا، ميز فيه بين القديم والمحدث كل بصفاته، وكل حسب طباع عصره وذوق بيئته، وتبعا لذلك اختلف تقدير محاسن وعيوب كل منهما، لأنه عد الاقتداء بمن مضى في استخدام الألفاظ طلبا للإغراب والتوعر والتعقيد ما أدى إلى التكلف، ومنه عدّ سببا لطمس المحاسن، لأن كل عصر وكل بيئة تفرض استخدامات معينة لألفاظ محددة دون غيرها؛ وهي ألفاظ مستمدة من البيئة وميزاتها، ومن العصر وحدوده، وباختيارات الشاعر التي تحدد تبعا لطبعه، ويضرب لذلك مثالا من شعر "أبي تمام" الذي:« حاول الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه، فحصل منه على توعير اللفظ فقبح كقوله:

*فَكَأَنَّمَا هِيَ فِي السَّمَاعِ جَنَادِلُ * وَكَأَنَّمَا هِيَ فِي القُلُوبِ كَوَاكِبُ*

فتعسف ما أمكن وتغلغل في التصعب كيف قدر(...) فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكدّ الخاطر والحمل على القريحة، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة(...) وهذه جريرة التكلف»[60]؛ فهو يرى في مثل هذا القول تكلفا، لأن الشاعر حاول الاقتداء بالقدماء، فاختار ألفاظا غريبة يلفها التعقيد، احتاج شعره من خلالها إلى التفسير وإتعاب الفكر وكدّ الخاطر. ولكن وجدنا في هذا المثال –على وجه التحديد- أن "القاضي الجرجاني" لا يبين ولا يحدد الألفاظ التي رأى فيها تعقيدا وتوعيرا وسيرا على الأوائل في الاستخدام من قبل "أبي تمام" فراح يقدم أعذارا للشاعر حتى لا يفهم رأيه على أنه حكم على الشاعر يقضي به أنه تعصب عليه واستهجن شعره وعدّه من الغض، ليبين ما للشاعر من مكانة أولا، وليؤكد طريقته في النقد التي محورها تحري العدل والحكم على أساس منه ثانيا، وليثبت أن موقفه من المحدث لا يقف عند هذا الحد السلبي من جهة ثالثة[61]،

كما أن هذا الرأي يحتمل قراءتين:

القراءة الأولى: أن استخدام ألفاظ من باب الاقتداء بالأوائل يعدّ عيبا في شعر المحدثين؛ لأن هذا الاستخدام خاضع لمقياس ذوق العصر، فتصبح حسبه هذه الألفاظ غريبة، متوعرة، وتضفي تعقيدا على التركيب، حتى تغدو تكلفا، وهو تأكيد على محكيّة هذا المقياس، وما يحدثه التطور الزمني والبيئي من تغيرات على المحور الاختياري في معجم الشاعر المحدث عمن سبقه، كما أن هذا لا يعني أن "القاضي الجرجاني" يطعن في لغة الأوائل وألفاظهم، لأنه تمييز بين لغتهم ولغة المحدثين، ما يثبت أن هذا التميّز والاختلاف بينهما أمر طبيعي فرضته قوانين التطور والتحضر على مستوى الزمن والبيئة، بالتالي فالطبع متجدد تبعا لتجدد هذه القوانين.

وهذا دليل على تميز وتفرد اللغة الشعرية بخصائص فنية معينة تبعا لتميز وتفرد كل عصر والذوق السائد فيه، إذن هذا المقياس ليس ثابتا؛ فكل عصر يتطلب لغة جديدة تتجاوز التي قبلها، فتكون العودة إليها نوعا من التكلف طلبا للغرابة والتعقيد، ووفق هذه الرؤية اتسمت اللغة الشعرية بالحيوية والتجدد.

القراءة الثانية: أن النسج على المنوال والنموذج الشعري للأوائل لا يعني إتّباعهم في الاستخدام اللفظي، ومطابقتهم في اختياراتهم المعجمية، لأن ذلك يعد عيبا، وتكلفا لا تمسكا بالطبع؛ فهو أمر يؤدي بالشاعر إلى الحشو وضعف التركيب وتعقيده، ومخالفة الطبع.

وإنما هذا النسج أو السير على المنوال، هو تمثّل للقيم الفنية والجمالية الموروثة عن القدماء، واتخاذها سبيلا للتوجيه، لا قوالب يصب على منوالها شكلا ومضمونا، بل للإضافة إليها وفق ما دعا إليه الطبع الجديد المهذب، ما يضمن لها حيويتها، وهو في ذلك أيضا لا يقف موقفا سلبيا من لغة الأوائل؛ يظهر ذلك في قول "القاضي الجرجاني": « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين(...) ثم انظر واحكم وأنصف، ودعني من قولك: (هل زاد على كذا) و(هل قال إلا ما قاله فلان)، فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم، وإنما تفضي إلى المعنى عند التفتيش والكشف وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمّل، والاسترسال للطبع(...) ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة القبح والحسن»[62]، ثم يسوق أمثلة لذلك من شعر "البحتري" و"جرير".

يقدم "الجرجاني" في هذا النص معايير مرجعية لجزالة اللفظ وهي: الطبع المهذب عن طريق الرواية، والفطنة، والاستعمال، وهي ليست حكرا على عصر دون آخر أو مذهب دون سواه؛ وهذا ما أكده بأمثلة من شعر المتقدمين "كذي الرمة" و"جرير"، والمتأخرين "كالبحتري" وهو من سار على المنوال واحتذى النموذج القديم، إلا أن هذا الاحتذاء لم يكن صبًا على القوالب، بل تمثلا للطبع واسترسالا له، وخضوعا للذوق المدرب، وتبدو هذه المعايير كالآتي:

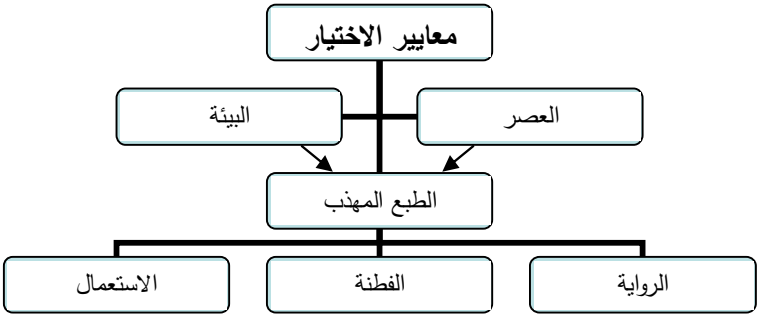

نخلص من ذلك إلى أن مقياس الجزالة في الألفاظ مقياس متجدد، وهو خاضع للأذواق المدربة التي هذبها طول مدارستها للآثار الأدبية الرفيعة[63].

كما نلاحظ أن "القاضي الجرجاني" في خطابه هذا لا يقف موقفا متناقضا بين القديم والحديث من جهة، وبين المحدث السائر على المنوال والمحدث المجدد من جهة ثانية، وإنما هو تجسيد لنظرته الوسطية العادلة، وبصيرته النافذة، وسعة ورحابة فكره النقدي؛ فقد جعل المعيار الذي يجمع بين آرائه معيارا واحدا هو: الطبع؛ الذي ضبطه بشرط واحد هو التجدد والتهذيب وفق ما يفرضه الذوق المتجدد بدوره حسب العصر والبيئة.

وبذلك اختلفت مقاييس اللفظ عند القدماء والمحدثين، باختلاف المعجم الشعري وحدود الاختيار لكل منهما، وبالتالي النظر والحكم عليهما لا يكون وفق المقارنة بقدر ما يكون تمثلا للقوانين والمقاييس الفنية التي فرضها الطبع المهذب والذوق السائد، وعدم الاستسلام للتكلف الذي قد يعني احتذاءً أو تجديدا، وعلى هذا الأساس اختلفت توصيفات اللفظ بين القديم والمحدث؛ فالقديم وما سار على منواله جزل مستقيم فخم متين، وذلك ليس توعرا وتعقيدا، لأنه تجلّ للطبع وتجسيد له، والمحدث ألفاظه سهلة بسيطة خالية من التعقيد والغرابة، وذلك ليس ضعفا وركاكة، لأنه تجلّ للطبع وتجسيد له.

ولا يفوتنا ما في خطاب "القاضي الجرجاني" من عمق نظر في المقارنة بين الأسلوب القديم والأسلوب المحدث في الشعر؛ فقد رأى أن المنظور النسبي خداع، فلكل عصر بلاغته التي تتحدد بتطور اللغة التابع لتطور مفهومات الحياة، ومن ثم فلا يجوز أن يوضع نتاج عصر من العصور مثلا أعلى للبلاغة يقاس عليه أو يقارن به نتاج العصور اللاحقة[64].

يتجلى ذلك في مبدأ الاختيار الذي عرضه في نمطه العام؛ المحكوم بمنطق البيئة والعصر وأثرهما في تطور وتغير الألفاظ واستعمالاتها، ويعد هذا المنطق أساسا أولا قبل مراعاة المعنى وما يستدعيه من اختيار ألفاظ دون غيرها، والارتباط بمقاصد الشاعر؛ لأن هذه المقاصد يحكمها الطبع في علاقته بالذوق العصري، والاختيار بهذا الوصف مطلب للطبع السليم والمهذب، وهذا التهذيب لا يعني التكلف؛ لأن ما فرضه هو التطور الحضاري والبيئة، فصار الطبع يطلب السهولة والسماحة واللين واللطف، وينبذ ما كان سائدا في الاستعمال على محور اختيار كان يحكمه

طبع مختلف، ويرى الطبع الجديد في هذا الاستعمال نوعا من التعقيد والغرابة والتكلف.

وهذه رؤية رحبة لم تُلغ مذهبا على حساب الآخر أو بالمقارنة به، وإنما أظهرت إدراكا لقوانين الجمال وتطوره، وبينت اهتماما باللفظ مفردا وتركيبا، وعكست خصوصية اللغة الشعرية من خلال اللفظ، ووعيا بهذه القيمة التي منحت للغة الشعر تفردا وتميزا لم يكن لغيرها من أنماط الكلام، فقد خضعت - بدءا باللفظ- إلى نواحي عدة، أهمها الناحية النفسية وهي ما جسدها الطبع الذي يؤطر النواحي الأخرى.

والأمر الثاني الذي أراده النقاد للفظ ليكون جيدا هو: الاستقامة؛ والاستقامة هي الاعتدال، يقال: اِسْتَقَامَ لَهُ الأَمْرُ؛ أي اعْتَدَلَ، وَالمَتَانَةُ وَالاعْتِدَالُ صِفَتَان مُلازِمَتَان لِلَّفْظِ، يَحْسُنُ بِوُجُودِهِمَا[65]، والاستقامة في اللفظ هي دقته في أداء المعنى، وإيحاؤه وسهولته وإفادته، بحيث يضيف معنى ولا يكون حشوا في البيت، كما تعني انسياق اللفظ مع القواعد القياسية في الإعراب والصرف، إضافة إلى وضوح معناه لئلا يقع فيه التباس[66]، وهذا العنصر أيضا خاضع لمقياس تطور العصر والبيئة، وبالتالي فالحكم على الكلمات في انتظام حروفها ودلالتها يجب أن يكون حسب ذوق العصر الذي قيلت فيه.

وقد ربط "القاضي الجرجاني" بين اللفظ ومعناه، حيث اشترط التناسب بينهما، ما يوفر للأسلوب الانسجام والتناغم، ما عبر عنه بالنمط الأوسط؛ فقد ربط بين اللفظ والمعنى بعلاقة النسب، من خلال علاقتهما بالموضوع أو الغرض الشعري، يتضح ذلك في قوله: « ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدا، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني »[67]؛ هو إذن ربط وثيق الصلة بين اللفظ والمعنى، أساسه مبدأ الاختيار الخاضع لتحقيق التوافق بينهما أولا، ثم موقع اللفظ ومعناه في التركيب ثانيا، وما يحقق التركيب من أسلوب خاضع هو الآخر لمقتضى الحال والسياق ثالثا.

تبعا لذلك اشترط "القاضي الجرجاني" – والنقاد من قبله- معيارين للمعنى يقابلان معياري اللفظ (الجزالة والاستقامة)، حتى يتحقق هذا التوافق والانسجام بينهما، والاعتدال في الأسلوب، هما: الشرف والصحة، وكما عرضنا بالنسبة للفظ فإن "القاضي الجرجاني" لا يشرح هذه المصطلحات، بل يمكن استنتاجها من خلال تطبيقاته على النصوص الشعرية، وتتبعه لعيوب اللفظ والمعنى، ويبدو من ذلك أن شرف المعنى عنده يعني سمو المعنى ولياقته بحسب مقتضى الحال[68].

أما الصحة فهي اشتمال المعنى على الصحة المنطقية، إضافة إلى تمشيه مع مبدأ شرف المعنى، وبهذا الوصف نلاحظ أن عنصري المعنى يتقابلان مع عنصري المبنى؛ فجزالة الأسلوب تقابل شرف المعنى، واستقامة اللفظ توازي صحة أداء المعنى؛ فإذا كانت جزالة اللفظ تخص الأسلوب أو النسيج الشعري، فإن استقامة اللفظ تتعلق بوظيفته في هذا النسيج[69]، وبالمقابل فإن شرف المعنى هو ترفعه عن مستوى اللغة الميتة (المبتذلة/السوقية)، لكنها لا تعني البعد

والتعالي عن المستوى العام أو البسيط، خاصة في لغة المحدثين التي اشترطت فيها السهولة والليونة، وهذا توفيق بين تأثير الحضارة وما تطلبته من السهولة، وبين مراعاة خصوصية اللغة الشعرية التي تتعالى عن السذاجة والابتذال والسوقية، فرفعة اللغة وشرفها لا تعني تعاليها إلى لغة بعيدة حوشية، كما أن الشرف لا يحمل معنى الأخلاق السامية والمثل العالية، وإلا فإن ذلك أيضا يعد تعارضا مع رأي "القاضي الجرجاني" حول علاقة لغة الشعر بالدين، وهذا بدوره لا يعني أن الفن القويم يتنافى مع المثل والأخلاق الرفيعة، فقد يكون المقصود اختيار الصفات المثلى، واختيار ما ينزع إلى المثالية[70]، وقد يكون هذا الشرف شرفا جماليا، ومطلبا فنيا بحتا، أما صحة المعنى فهي تتعلق بوظيفته وتأثيره في التركيب.

لقد تميز "القاضي الجرجاني" في خطابه بنظرة مثالية اتجاه اللفظ في علاقته بالمعنى، حيث تطلبت هذه العلاقة-حسبه- الملاءمة والصلة العميقة، وهي نظرة متميزة عما كان سائدا في عصره من نظرات وآراء نقدية قامت على الرؤية الأحادية لشقي اللغة الشعرية (اللفظ/المعنى).

وخلاصة القول إن "القاضي الجرجاني" استطاع الكشف عن مقومات الشعر التي تتعدى به الموهبة الطبيعية، التي ترغب في تفعيل العلاقات المنظمة لحركتها وتطويرها، ولأنه لا يمكن أن ينحصر الإبداع مهما تكن نوعيته وجنسه في مجرد الاستعداد والقدرات الذاتية، بل حقه أن يحظى بالتهذيب، من اجتماع الطبع بالعادة والصنعة، كما امتلك نظرة شمولية في خطابه النقدي على مستوى اللغة الشعرية في بنيتها اللفظية التي حدد علاقتها بالمعجم الشعري الخاضع لمعيار التطور الزمني والبيئي والحضاري، ما جعله يتميز بالانفتاح والانصياع لمعايير الحداثة الشعرية ومؤثراتها، ما منح اللغة الشعرية نوعا من الحرية، التي تقوم على أساس الاختيار في علاقتها باللغة المعيارية، وقد وعى خصوصية هذه اللغة التي ترتقي بها عن باقي أنماط الكلام، لأنها تعتمد الرؤية الجمالية والسمة الفنية.

---

[1] - ينظر: رحمن غركان: مقومات عمود الشعر الأسلوبية "بين النظرية والتطبيق"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، دط، 2004م، ص53.

[2] - محمد بن مريسي الحارثي: عمود الشعر العربي" النشأة والمفهوم"، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996م، ص205.

[3] – القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 15.

[4] - فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث العربي "دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة" الشعر والشاعر، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص 92.

[5] - جابر عصفور: مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي"، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص 22.

[6] - المرجع نفسه، ص 23.

[7] - سعد أبو الرضا: معالجة النص في كتب الموازنات التراثية "منهج وتطبيق"، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص 137.

[8] – مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة "رؤية نقدية في المنهج والأصول"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2005م ، ص7

[9] - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج8، ص232.

[10] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 24.

[11] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب " نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري "، دار الشروق للنشر، ط1، 2001م، ص 320

[12] - فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث النقدي " الشعر والشاعر"، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص 96.

[13] – القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 24.

[14] - خضر موسى محمد حمود: موازنة الآمدي ووساطة الجرجاني "دراسة أدبية مقارنة"، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص 71.

[15] - مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة ، ص 66.

[16] - ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، 2004م، ج1، ص 197.

[17] - مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة ، ص 97 .

[18] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 23 .

[19] - المصدر نفسه، ص 23.

[20] – المصدر نفسه، ص 23.

[21] - مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة ، ص 97 .

[22] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 31 .

[23] - مصطفى دراوش : خطاب الطبع والصنعة ، ص 98

[24] - سعد أبو الرضا: معالجة النص في كتب الموازنات التراثية " منهج وتطبيق"، ص138

[25] – خضر موسى محمد محمود: موازنة الآمدي ووساطة الجرجاني، ص 74 .

[26] - فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث النقدي " الشعر والشاعر"، ص 93.

[27] - مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة، ص 71.

[28] – القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 15

[29] – المصدر نفسه، ص 16.

[30] – فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث النقدي " الشعر والشاعر"، ص 93.

[31] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 16.

[32] – مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة، ص 91.

[33] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 24 .

[34] - المصدر نفسه، ص 24.

[35] - مصطفى دراوش: خطاب الطبع والصنعة، ص 92.

[36] - ينظر: محمد كريم الكواز: البلاغة والنقد، ص85.

[37] – أحمد محمد المعتوق: اللغة العليا "دراسات نقدية في لغة الشعر"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص142.

[38] - محمد بلوحي: بنية الخطاب الشعري الجاهلي في ضوء النقد العربي المعاصر "بحث في تجليات المقاربة النسقية"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، دط، 2009م، ص69.

[39] – المرجع نفسه، ص69.

[40] – أحمد محمد معتوق: اللغة العليا، ص91.

[41] – مصطفى أبو كريشة: النقد العربي التطبيقي بين القديم و الحديث، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت، لبنان، الشركة المصرية لونجمان للنشر، القاهرة، مصر، دط، 1998م، ص10.
[42] – أحمد محمد معتوق: اللغة العليا، ص144.
[43] – ينظر: رحمن غركان: مقومات عمود الشعر الأسلوبية، ص195.
[44] - سامي محمد عبابنة: التفكير الأسلوبي "رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث"، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2007م، ص118.
[45] – القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 34.
[46] – ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص109.
[47] - رحمن غركان: مقومات عمود الشعر الأسلوبية، ص 196.
[48] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص24.
[49] - محيي الدين صبحي: نظرية الشعر العربي "من خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري"، الدار العربية للكتاب، دمشق، سورية، ط1، 1981م، ص139.
[50] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص17.
[51] - توفيق الفيل: القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي "من بشار إلى ابن المعتز"، مطبوعات الجامعة، الكويت، الكويت، دط، دت، ص119.
[52] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص24.
[53] - المصدر نفسه، ص18.
[54] - المصدر نفسه، ص18.
[55] - المصدر نفسه، ص18.
[56] - المصدر نفسه، ص18.
[57] -المصدر نفسه، ص16.
[58] - ينظر: المصدر نفسه، ص17.
[59] - المصدر نفسه، ص19.
[60] - المصدر نفسه، ص19.
[61] - ينظر: المصدر نفسه، ص19.
[62] - المصدر نفسه، ص25.
[63] - توفيق الفيل: القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي، ص124.
[64] - ينظر: محيي الدين صبحي: نظرية الشعر العربي، ص100
[65] - ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص325.
[66] - محيي الدين صبحي: نظرية الشعر العربي، ص139.
[67] - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص24.
[68] - ينظر: محيي الدين صبحي: نظرية الشعر العربي، ص138.
[69] - ينظر: المرجع نفسه، ص 138.
[70] - ينظر: توفيق الفيل: القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي، ص 110.